حكايات شعبية

ناقشت الندوة "حكايات شعبية- المجموعة الأولى (1)" لعمر سلامة، وتقع في 40 صفحة من الحجم الصغير. صدرت بداية العام 2011، بدون دار نشر، أو تأريخ للصدور.

رفيقة عثمان:

المضامين التربوية السلبية في مجموعة "الحكايات الشعبيَّة"

تناول الكاتب مضامين تربوية سلبيّة، لا تهدف إلى تطوير شخصيَّة الطفل، بل على العكس تمامًا، تغرس في نفوس الأطفال الحقد، والخوف، والضغينة، وحب الانتقام، والاعتداء على الآخرين، وظهر ذلك في الحكايات كافة.

استخدم الكاتب حكايات شعبيَّة متداولة شفويًّا، ودوّنها ليحفظها من الضياع، في عصر تتسارع فيه الوسائل التكنولوجيَّة الحديثة، الّتي تحثّ الطفل على التوجُّه نحو العلم، والتقدُّم، والتفكير الإبداعي الناقد.

إنَّ مجتمعنا العربي، والفلسطيني خصوصًا، ليس بحاجة إلى حكايات من هذا النوع، الذي يُعزِّز القيم، والمعايير الاجتماعيَّة السلبيَّة، وفي الوقت نفسه لا يعني بأن نرمي بالتراث عرض الحائط، بل يحتِّم علينا الاختيار، والانتقاء الدقيق للحكايات الشعبيَّة الّتي تتواكب مع مجريات الأحداث المعاصرة، والّتي تحافظ على عاداتنا، وتقاليدنا الإيجابيَّة الّتي نظل نعتز بها دومًا، ونفتخر بها بين الشعوب الأخرى، ويتوجب علينا ألا نسرد للأطفال الحكايات الشعبيَّة غير الهادفة تربويًّا، وإن كان مطلوبًا منا تدوينها لمنعها من الاندثار والضياع.

بودِّي أن أتطرَّق إلى الحكاية الشعبيَّة الأخيرة "البغل المسكين"، الّتي استقاها الكاتب من الواقع، وأراد أن يُعلِّم الأطفال هدفًا تربويًّا، دون أن ينتبه إلى الأخطار الّتي من الممكن أن تسببها هذه الحكاية، فكانت النهاية المحتومة للطفل الموت بسبب عبث الطفل، وإمساكه زرد الرسن بحركة لا لإراديَّة، ما أخاف البغل، وتسبَّب في جرِّه، ووفاته. ولكي يتوصل الكاتب لهدف تربوي حسب وجهة نظره، وقع في خطأ كبير.

إن مفهوم الموت عند الأطفال بحاجة إلى مراعاة، وتمهيد، دون التطرُّق إليه بهذه الطريقة المُقشعرة للأبدان، ليس من الضروري أن يُقتَل طفل في سبيل تعليم الأطفال عبرة ما.

- حبّذا لو يتمّ الحذر من كتابة الحكايات الشعبيّة، وانتقائها قبل كتابتها، واجترارها.

- يُفضَّل ألا تُكتب الأهداف التربويَّة من القصَّة، ولندع الطفل يتوصَّل غلى الأهداف لوحده، بإرشاد البالغين.

جميل السلحوت:

عمر سلامة

فلسطيني مولود في العام 1946في عرب السواحرة قضاء القدس. حاصل على درجة الماجستير في التاريخ. عمل مدرسًا في مدرسة السواحرة الغربية للبنين إلى أن أُحيل إلى التقاعد قبل خمس سنوات، وهو شقيق الأديب الراحل خليل السواحري.

التراث الشعبي

هو موروث الشعب عن الآباء والأجداد، وهو نتاج إبداعي للشعب جميعه، وليس لفرد بعينه. والتراث الشعبي جزء من مكونات الهوية الوطنية لأي شعب، فلا يوجد شعب لا تراث له. والتراث الشعبي

تراكم لحضارة الشعوب عبر الأجيال، وعبر التاريخ، فما وصلت إليه البشرية في أيامنا هذه من تقدم حضاري وعلمي، ليس وليد أفكار هذا الجيل، بل إن هذا لجيل بنى على ما ورثه من الآباء إلى أن وصل إلى ما وصل إليه.

والتراث الشعبي قسمان هما:

قَولي: مثل الحكاية، المثل، الأغنية، الأقوال... الخ.

عملي: مثل أدوات الزراعة، أدوات المطبخ، الأبنية، الأزياء... الخ.

حكايات عمر سلامة

روى لنا عمر سلامة، في هذا الكتيّب، خمس حكايات، أربع منها حكايات معروفة ومتداولة، ليس في فلسطين وحدها، بل في العالم العربي جميعه، ولا غرابة في ذلك، فالثقافة العربية متشابهة، مع بعض الفوارق البسيطة المتأثرة بالبيئة المحلية. وهذه الحكايات هي:

- أبو تحصن وملك الغابة.
- حاصدو الهواء.
- عواد والغولة.
- نصائح للبيع.

أمّا الخامسة، وهي "البغل المسكين"، فهي حادثة مؤلمة حقيقية، حدثت في بلدة الكاتب قبل حوالي 20 عامًا، وقد أكد الكاتب ذلك دون

أن يدري، عندما مهد لها بقوله: "حكاية البغل المسكين قصة حقيقية، حدثت في إحدى القرى الفلسطينية" (ص25). كما أنه أورد الأسماء الحقيقية للأشخاص في الحكاية.

والحكايات الشعبية لم تكتب للأطفال كما يعتقد البعض، فهي كبقية الفنون الشعبية، خلاصة تجربة جيل أو أجيال، فيها عِبَرٌ مستفادة. صحيح أن فيها تسلية، كما هي بقية الآداب بما فيها الأدب الرسمي، لكن الحكمة المستفادة يجب أن لا تغيب عن بال من يقرؤها أو يسمعها، وقد حاول الكاتب أن يستنبط بعض الحكم والعبر المستفادة وإن لم يستنبطها جميعها.

اللغة

يجب التذكير هنا أنه يوجد خلافات في الرأي حول كيفية تدوين الحكاية الشعبية، وهل تدون باللهجة المحكية (العامية) أم باللغة بالفصحى؟ وكلا الفريقين حاول الدفاع عن وجهة نظره، فأنصار العامية تشددوا كثيرًا، حتى أن بعضًا منهم قال: إن على مُدوِّن الحكاية أن يسجلها حرفيًّا كما سمعها، وأن يكتب اسم الراوي الذي سمع الحكاية منه وعمره، وتاريخ سماعه للرواية. أما دعاة الفصحى، فقد تحجَّجوا بأن الفصحى مفهومة من كلّ القرّاء العرب، وهم ضد تكريس اللهجات العامية لأسباب كثيرة. وقد حاول عمر سلامة أن يروي لنا حكاياته باللغة الفصحى قدر المستطاع، ولكنه وقع في عشرات الأخطاء اللغوية،

ولو أنه لجأ إلى مدقق لغوي قبل النشر، لتجنب الوقوع في هذه الأخطاء. وبما أنه قدم حكاياته وأصدرها في كتيب كما هي الكتب المقدمة للأطفال، فإنه يجدر التذكير بأن الأطفال يقدّسون الكلمة المطبوعة. ومن أهداف الكتابة للأطفال هدف تعليمي، ولذا فإن الأخطاء اللغوية هنا تشكل خطيئة، يجب عدم تكرارها، خصوصًا وأن الكاتب كتب على الغلاف الخارجي "المجموعة الأولى"، ما يعني أنه بصدد إصدار مجموعة ثانية، وثالثة، ورابعة. لن أعدد هنا هذه الأخطاء لكثرتها، لكنني سأنوّه إلى خطأ ليس نحويًّا، وجاء في الكلمات الأولى للحكاية الأولى "أبو تحصن وملك الغابة"، فقد بدأ الكاتب حكايته قائلًا: "أبو تحصن لقب الوجاهة والتبجيل، تطلقه بعض الحيوانات الكاسرة على الثعلب" (ص2)، وكلّمة "أبو" و"أمّ" إذا ما سبقت اسم العلم فإنها كنية، وليست لقبًا، وفي الثقافة العربية، فإن مخاطبة المرء بكنيته تعبير عن الاحترام والتقدير، ومن أطلق "أبا تحصن" على الثعلب هو الإنسان، وليس الحيوانات الكاسرة. أما اللقب، فهو من الصفات، فـ"ملك الغابة"، الذي ورد في الحكاية، هو لقب للأسد.

ولا أعلم لماذا اختار الكاتب عنوان "البغل المسكين" عنوانًا للحادث المأساوي الواقعي الذي اعتبره حكاية؟ ولماذا اختار المسكين صفة للبغل الذي تسبب بقتل طفل بريء؟ فمن المسكين؛ الضحية أم البغل؟!

الرسومات، والإخراج، والمونتاج

الرسومات لم تكن جميعها موفقة وتناسب الموضوع، فمثلًا في الصفحة (3) صورة الغراب الذي يحمل الثعلب ويطير فيه، هي أقرب إلى صورة النسر منها إلى الغراب، وفي تقديري أن الكاتب أخطأ، أيضًا، عندما روى في الحكاية أن الغراب هو من حمل الثعلب وطار به، والغراب والثعلب معروفان في بلادنا وفي كلّ البلدان، والغراب لا يستطيع أن يحمل الثعلب وأن يطير به، فكيف سنقنع الطفل بذلك؟

وفي حكاية "حاصدو الهواء" (ص9)، أخطأ الكاتب عندما بدأ الحكاية قائلًا: "يحكى أن أهل جزيرة نائية كان يحكمهم ملك ظالم مستبد" (ص10)، وهو يروي لنا حكاية شعبية فلسطينية، فأين الجزر في فلسطين قريبة أو نائية؟! بل أين الجزر العربية النائية؟! وما الحكمة من لجوء الكاتب إلى اختيار جزيرة لتدور فيها أحداث الحكاية؟

أمّا الرسومات جميعها في الحكاية، فإنّ شخوصها لا يبدون عربًا، وصورة الزوجة (ص14) تشبه صور "الجنيات" كما تخيّلها الرسامون الغربيون، والبيت أو القصر (ص12) لا علاقة له بفن العمارة العربية. ولاحظوا رسومات حكاية "عواد والغولة"، فهي الأخرى بعيدة عن التراث العربي أيضًا. وفي "البغل المسكين" رسومات البغل هي لحصان وليست لبغل.

وعلى الغلاف الخارجي لا داعي لكتابة "إعداد وتقديم"، فإعداد وحدها تكفي، لأن الكاتب لم يكتب تقديمًا للكتيب.

عنوان المجموعة

العنوان "حكايات شعبية- المجموعة الأولى" غير كافٍ، وغير دالٍّ، وحبّذا لو أن الكاتب اختار عنوان إحدى الحكايات ليكون عنوانًا للمجموعة.

نزهة أبو غوش: الحكايات الشعبية، والشخصيات الخارقة

أَود أَن أَتناول الشخصية الخارقة في الحكاية الثالثة "عوَّاد والغولة"، حيث إِن الشخصية الخارقة هي الغولة، ومن الجدير ذكره، أنّ حكايات الغيلان تحتل مكانة عالية في مجموعة الحكايات الشعبية العالمية، وقد يخلط الراوي الشعبي أَحيانًا بينها وبين الجانّ، والعفريت والساحر، أَو الساحرة، والشرير، والشريرة...الخ.

للغولة في الحكايات الشعبية مواصفات تتصف بها، مثل أَنها إنسان متوحش، شعرها منكوش، والأَظافر طويلة ومغروسة بالأَرض، أَو على شكل حيوان، أَو هي على شكل ثعبان يتلوى على جسد الإِنسان فيقتله، أَو على شكل إِنسان عادي متخفٍ بداخله الغول، أَو أَن هناك أَشكالًا متعددة تختلف حسب ثقافة الشعوب، وحضاراتها.

إِن شخصية الغولـة في حكايـة "عـوَّاد والغولـة"، ظهـرت عـلى شـكل امرأَة طبيعية: "سارت المرأَة أَمامه وأَخذ يتفحص أَمرهـا، هـل هـي امـرأَة فعلا؟" (ص19). لقد تحدثت الغولة مع عواد، وأَقنعته بأَنها أُخته الّتي لا يعرفها، لأَنـه لم يـشاهدها منـذ زمـن بعيـد، واسـتطاعت أَن تـستدرجه إِلى ثلاثـة بيـوت منعزلـة، وأَقنعتـه بـأَن يعـيش مـع عائلتـه فيهـا، لأَنهـا غنيـة، ويمكنها مساعدته، فوافـق بـسبب وضـعه المـادي الـصعب، غـير أن ابنتـه الكبرى اكتشفت الغولة عن طريق الصدفة، بينما كانت ترسل لها الطعـام الذي أَعدته والدتها.

لقد أُصيبت الفتاة بالرعب عندما رأَت كيف أَن المرأَة- عمتها- تأكـل لحم طفل صغير، وعرفت من الأُم، بعد أَن حدثتها بكـلّ شيء، بـأَن تلـك المرأَة هي الغولة.

من خلال الحكاية، نلاحظ مدى قدرة الغولـة كشخـصية في الحكايـة، فهـي شخـصية خرافيـة، ذات مـضمون خـارق للعـادة. لهـا القـدرة عـلى التحول إِلى إِنسان لطيـف متـى شـاءت. كـما أَن لـديها القـدرة عـلى تمزيـق أَجساد البشر، وأَكـل لحـومهم، ثـم أَن لـديها القـدرة الخارقـة عـلى الهـرب والإِفلات من بين أَيدي البشر الذين تعرضـوا لهـا، مـن أَجـل الـدفاع عـن أَنفـسهم. لقـد أَراد الـراوي أَن يوصـل للمـستمع- القـارئ- فكـرة عـدم التسرع عند اتخاذ القرارات المهمة، مثل ما حدث مع عـوَّاد بطـل الحكايـة

الذي جرى خلف المرأَة المجهولة، وتقبل عرضها للسكن معه بعد أَن اقتنع بأَنها أُخته الغنية.

لقد جعل الراوي من شخصية الغولة بطلة للرواية، تحركت الأَحداث من خلالها، وانتهت بعد فرارها.

لقد أَراد الإِنسان القديم أَن يخرج من نطاق الواقع إِلى الغريب واللا معقول، كما أَراد السيطرة من خلال شخصيات خيالية خرافية، فوجد الغول وسيلته المقصودة. هل يعود ذلك، يا تُرى، إِلى فقدان الوسائل العلمية قديمًا كالّتي نراها في يومنا هذا؟ هل استنجد الإنسان بالغول لإِضاعته العلوم، ووسائل الاتصال السريعة؟ فكان الغول وسيلته المضمونة، حتى أَنه اعتبره من ضمن القضاء والقدر، فاستسلم لوجوده سنوات عديدة. هل فكر التربويون، والمختصون النفسيون والاجتماعيون وغيرهم، في دراسة شخصية الغول في الحكاية، ومعرفة ما مدى إدراك الطفل لخرافيتها، وكيف تؤثر على نفسية الأَطفال وبناء شخصياتهم؟

لو عرضنا صورة الغولة الّتي في الحكاية "عواد والغولة"- على أَطفال في سن الرابعة، أَو الخامسة مثلًا- وهي تقطع الأَطفال وتأكلهم، ماذا ستكون ردة فعلهم؟ كيف سيفهمون الذي حدث؟ هل يدرك الطفل في هذا العمر المسافة ما بين الواقع والخرافة؟ وقد ذكر معد الحكاية، الأستاذ عمر سلامة في الصفحة (21) مدى خوف الطفلة عند رؤيتها الغولة

وهي تأكل لحم الطفل "فرجعت مسرعة وهي تبكي وتخبر أُمها وتتلعثم في الكلام".

إِن شخصية الغولة في الحكاية جزء ضروري لكونها حكاية، وهي جزء من موروثنا، وتراثنا الشعبي، كما أَنها جزء من مادة للتراث الشعبي يدرسه الأنثروبولوجيون كظاهرة في الثقافة الشعبية، بصرف النظر عن كونها واقعية، أَو خرافة. إن حفاظنا على تراثنا الشعبي، وما خلّفه لنا الأَجداد، أمر مهم وضروري، لكن ليس بأَي ثمن.

لقد آن الأَوان لأَن نقضي على الغول الذي بداخلنا، لكي نورث أَطفالنا حياة نظيفة، يقودها العلم، والمنطق، والإِدراك، والفهم المبني على الاستنتاج والتحليل. يجب أَن نقضي أَولًا على غول التخلف، والمرض، والجهل، وغول العداوة، والعنف، والانقسامات.

أَقترح على الأُدباء في العالم العربي عمومًا، وفي فلسطين خصوصًا، العمل على استبدال الغول الجديد في الحكاية الشعبية للأَطفال بالغول القديم، بما يحمله من خوارق، وقدرات عجيبة، لما توفره لنا وسائل الاتصالات السريعة والمختلفة، وكذلك العولمة بكلّ أَشكالها، وأَقترح بأَن نستأصل من حكايات الأَطفال الشعبية كلّ الشوائب، وملاءَمتها مع روح العصر والتطور، وأن نترك أَطفالنا ينطلقون بأَفكارهم، وخيالاتهم، لكلّ ما هو نافع ومفيد.

بعد ذلك جرى نقاش مطول شارك فيه عدد من الحضور منهم: د. إسراء أبو عياش، وسمير الجندي، وخيرات صيام، وإبراهيم جوهر، ومحمد عليان، ونسب أديب حسين، وصقر السلايمة.

(القدس 3/ 3/ 2011)